أثر التحولات السّوسيوثقافيّة في الفن الشعري العربي القديم

The impact of sociocultural transformations on the ancient Arab poetic art

تاريخ الاستلام : 2022/01/12 ؛ تاريخ القبول : 2022/04/06

ملخص

تهدف هذه المقالة إلى إجراء مقاربة نقدية منهجية من خلال الوقوف على أثر التحولات السوسيوثقافية في تشكيل العمل الفني، ذلك أن الفن انعكاس للظواهر الاجتماعية والأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية التي تصنع الحدث في بيئة وزمان معلومين، وعليه فإن التحول الذي مسّ العرب من ناحية التحول من البداوة إلى التحضر، قد صاحبه تغير في تذوق الفن الشعري العربي، ولم تعد القصيدة العربية متماشية مع هذه المتغيرات، مما أدى إلى بروز حداثة شعرية، إلى جانب أنماط تعبيرية جديدة تتماشى مع الراهن العربي.

الكلمات المفتاحية: الصراع بين القديم والحديث- مرتكزات الحداثة الشعرية - أثر التحولات الاجتماعية والاقتصادية في الفن- الفن انعكاس للواقع الاجتماعي السياسي.

* د.محمد ضياف

قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر.

Abstract

This article aims at examining a methodological critical approach by means of studying the impact the sociocultural changes on the formation of artistic work.

Art is a reflection of the social phenomenon, the political events and the economic conditions which places the act in a defined time and environment.

Keywords: The Conflict between modern and ancient patrimony - The effects of sociological and economic changes on arts- Art is a reflection to sociological and political reality- The supports of poetic modernity.

Résumé

Cet article a pour objectif l'étude d'une approche méthodologique critique à travers l'évaluation de l'impact des transformations socioculturelles sur la formation de l'ouvrage d'art.

L'art est un reflet des phénomènes sociaux, des événements politiques et des conditions économiques qui met l'acte dans un temps et un environnement bien défini.

Mots-clés: Le conflit entre le patrimoine ancien et modern- l'effet des transformations sociologique et économique sur l'art- L'art est la réflexion du réel social et politique- les support de la modernité poétique.

* Corresponding author, e-mail: mohamed72diaf@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2022.

I – مقدمة:

عرّف النص الشعري العربي القديم استقطابا كبيرا لدى النقاد العرب في القديم والحديث إذ أدّى إلى بروز حركة نقدية اهتمت بدراسة النص الشعري والحكم عليه بالجودة أو الرداءة تبعا لمنطلقات النقاد أو الدارسين مما أسهم في اختلاف وجهات النظر في تلقي النص الشعري بين معجب به ورافض له اتساقا مع مواقفه النقدية، حيث دار صراع كبير بين العلماء والنقاد قديما في القراءة والتحليل من أجل تقييمه والحكم عليه.

إن الرؤى النقدية تستمد شرعيتها من المفاهيم التي ينطلق منها الدارس في ممارساته النقدية للأعمال الفنية، وقد تختلف الآراء، وتتضارب المواقف تبعا لتعدد التموقعات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي ينطلق منها في مقارباته النقدية للعمل الفني وهو ما يغدو إشكالا معرفيا، بحاجة ماسة إلى الوقوف عنده، وتحليل آلياته بهدف أن تكون أحكامنا النقدية موضوعية، بعيدا عن الانطباعية أو الذاتية الموغلة في التطرف أو الإقصاء لكل من يخالف توجهاتنا ومواقفنا.

إن القراءة النقدية الاستكشافية قادرة على تلقي النص الإبداعي بشكل موضوعي، دون أن تكون لإسقاطاتنا الذاتية المختلفة أثر في عملية التقييم الجمالي، ولعل هذا الأمر ليس بالسهل والميسور عند كثير من الدراسين نظرا لصعوبة المهمة النقدية في تصدر العمل الفني وتحليله انطلاقا من النص وإفرازاته المتعددة والتي يجب أن تكون هذه القراءة مقرونة بزمانية إنتاجية النص الأدبي.

إن عملية مقروئية النص الإبداعي مرتبطة بزمانية إنتاجية، لأنه من الخطأ تلقي النص خارج زمانه، ذلك أن أي نص هو نتاج تحولات سياسية واجتماعية وقعت في تلك الفترة، وقد تكون لها امتدادات جمالية، وانعكاسات سوسيوثقافية، من حيث تشكّلها ببعض ملامح هذه التحولات.

إن الدراسات الثقافية المعاصرة كشفت على أن النصوص الأدبية متضمنة لأنساق ثقافية مضمرة، وعلى القارئ المتماهي مع النص، والمتفاعل مع تمفصلاته المختلفة بإمكانه أن يحدد الدلالات المضمرة داخل النص، وهذا لا يتحقق إلا عبر هذه الفيوضات العرفانية التي تجعل من هذا الظاهر مطية للتفاعل مع الباطن، وهو ما يتيح للقارئ ملء الفراغات على حد تعبير غادامير أو ما اصطلح عليه آيزر Iser بالبياضات النصية.

إن قراءة واعية في تاريخ الشعر العربي تكشف على أن النص الشعري العربي القديم قد عرف تحولات كبرى سواء على مستوى مضامينه الجديدة، أو في طريقة بناء هيكل القصيدة، إذ لم تعد المقدمة الطللية عنصرا مهما من ثوابت القصيدة العربية إلى جانب أن وصف الناقة ووصف الرحلة لم تعد عرفا أساسيا من أعراف التقاليد الشعرية العربية القديمة، ذلك أن هذه العناصر التي لم تصبح متماشية مع بنية المجتمع العربي الذي شهد انقلابا جذريا في تشكيلاته الاجتماعية وترتيباته السياسية، حيث نتج عن ذلك مجتمع جديد هو نتاج تفاعل مع الوافد الجديد في ظل انفتاح المجتمع العربي على كل هذه المؤثرات الجديدة التي لاقت تجاوبا وتفاعلا نظرا لحاجة المجتمع العربي إلى الانتقال من البداوة إلى التمدن، ومن الثابت إلى الحركية، ومن قدسية التقاليد الشعرية التي حكمت الفن الشعري العربي القديم إلى كسر هذه التقاليد ذلك أنها أصبحت لا تستجيب لمتطلبات الواقع ومتغيراته، لأن الذهنية العربية قد تغيرت وتحولت من الاتساع إلى الابتداع ومن التقليد إلى التجديد بناء على أن الفن في تبدل وتغير نتيجة تغير الحياة الاجتماعية الجديدة ولا سيما في كنف الدولة العباسية التي شهدت نقلة نوعية في مواقف الشعراء من الحياة والوجود، ولم يكن هناك بد من أن تظل التجارب الشعرية الجاهلية مهيمنة على التفكير العربي في توجيه الذات العربية إلى الاستجابة

التلقائية للقصيدة العربية الجاهلية مع العلم أن هذا لا يتناسب مع الواقع الجديد، ولا يعبّر عن الأفراد والجماعات، خاصة إذا ما علمنا أن المؤثرات الأجنبية كان لها صدى على مستوى البنية الفنية من جهة وتغيّر على مستوى تعاطي الأفكار وتلقي مسائل الحياة والوجود من جهة أخرى وهو ما يعني أن هناك ضرورات تستدعي تغييرا في ماهية الفن ووظائفه.

ومهما حاول الفرد أن يساير المألوف، ويرفض الجديد فإن هذه النظرة لن يكون لها تأثير على الفن، بل على العكس سيكون الرفض حالة طبيعية في المحاكاة الشعرية لكل ما هو قديم بدعوى أن أي خروج عن المألوف يعدّ استفزازا فنيا واجتماعيا وسياسيا وهو ما رأى فيه بعضهم نوعا من القداسة التي لا معنى لها على هذا النحو، وقد وقف لفيف من المبدعين موقف الرافض لهذه التقاليد الشعرية التي لم تعد لها ضرورة على مستوى الحياة والوجود، وفي كيفية التعامل مع القضايا الآنية التي تختلف عما ألفه الإنسان العربي في حياته في العصر الجاهلية، وهذا ليس معناه اتخاذ موقف نقدي من الفن على مستوى القيم الفنية الذي ظهر في مرحلة زمانية معينة ، بل إن هذا الفن كان له ما يبرره في الحضور العربي في المحافل الشعرية، وكان تعبيرا عن مواقف الأفراد من الحياة والوجود في فترة زمنية محددة ولكن الآن لم يعد هذا الفن الشعري يتماشى مع طرائق تفكير الأفراد في الحياة، ونظراتهم للكون ذلك أن الحياة الجديدة في العصر العباسي قد كشف عن مستويات مختلفة في تلقي الفن الشعري في ظل هذه التحولات الكبرى التي طرأت على الحياة وغيرت من بعض البنى والأعراف البشرية التي كانت سائدة.

اتساقا مع هذه التطورات الجديدة التي نتجت في ظل حركية جديدة للمجتمع العربي في العصر العباسي، كان لا بد من ظهور بعض من المفاهيم والرؤى التي كان لها تأثير كبير على مسار الحياة الأدبية وهو ما وجد فيه بعض المبدعين طريقا للخلاص من تبعات النظرة القديمة للفن الشعري التي أعطت شرعية للنص القديم، وفي المقابل رفضت كل من يخالف هذا النمط القديم لحداثته انطلاقا من أي محاولة تحديث في بنية النص الشعري هو خروج صريح، وثورة على كل قديم ، وقد تبنّى هذا الموقف بعض الأدباء والنقاد، ويأتي على رأس هؤلاء علماء اللغة أمثال عمرو الشيباني، وابن الأعرابي وغيرهما ممن وقفوا موقفا رافضا للمجددين، على أن حركتهم ما هي سوى ثورة على اللغة العربية ويتجلى ذلك في أن الأساليب التعبيرية الحديثة ما هي إلا دعوة لرفض اللغة العربية، وقد غاب عن ذهن هؤلاء أن تقديس القديم وجعله أنموذجا صالحا لكن زمان ومكان قد يسبب في انكماش الإبداع الشعري جراء هذا التقليد الأعمى للتقاليد الشعرية وهو ما يخفي على جمالية الإبداع واستمراريته، ولكن القراءة الفاحصة في المتون الشعرية العربية القديمة تلاحظ أنها قد نالت إعجاب النقاد والباحثين في ظل تموضع النصوص داخل البيئة وفي تلك الفترات الزمنية، لأنهما يحدّدان طبيعة النص الشعري تماشيا مع الموروثات الاجتماعية والثقافية التي رافقت هذا المنجز الأدبي، وعليه يكون حضور النص في الوسط الاجتماعي أمرا ضروريا لكي نتفادى أي ردود فعلية نقدية عكسية في تلقيها لأن عدم مجاراة الفن للواقع قد يفتح أبوابا لنقود كثيرة بينما قد تجد في الجديد استمرارية للقديم دون أن يكون هناك أي مبرر لهذا الحضور على مستوى الإبداع، وهو ما يخلق نوعا من الاختلاف في طبيعة الاستقطابات للفن، وعليه يكون من الضروري أن يحظى الفن الشعري بالتميز والتفرد في ظل زمنية كتاباته، لأنه من الضروري أن تكون قراءته للعمل الفني خاضعة لزمانه ومكانه.

إن الواقع الشعري في العصر العباسي أتاح لبعض الشعراء أن يعبروا في أدبهم عن قضايا جديدة احتلت حيزا كبيرا في الثقافة العربية من حيث الاستهلاك والتلقي، فلعل في وجود الوافد الجديد الأعجمي وما أضافه من أفكار وثقافات جديدة على البيئة

العربية التي ورثها العباسيون عن الأموين، كان له أثر كبير في بنية الفكر العربي، من حيث إنه جاء بأشياء جديدة لم تكن مألوفة عن المبدع العربي، فقد رأى العباسيون في هذا الوافد الجديد لا سيما الفارسي فرصة كبيرة في استبدال القديم بالجديد، نظرا لأهميته في الوقت الراهن.

إن الفعل التحرري لدى الشعراء والنقاد في العصر العباسي كان وقعه كبيرا على المبدع أولا، والقارئ ثانيا من حيث إن للتحولات السوسيو ثقافية الجديدة أثر واضح في إحداث تغييرات جذرية في البنى الاجتماعية والأنساق الثقافية الجديدة والطروحات السياسية، وهو أثر بشكل واضح على الفن الشعري من خلال بروز تقاليد شعرية جديدة تتوافق مع المتغيرات الاجتماعية والثقافية الجديدة.

مبررات الأقاويل الشعرية القديمة:

يستمد المشروع النقدي العربي القديم ولا سيما عند أهل اللغة توجهه من نظرة التقديس للقصيدة العربية الجاهلية بوصفها تشكيلا فنيا أدبيا جديدا وانعكاسا للأحداث السياسية والواقع الاجتماعية التي ظهرت في العصر العباسي.

انطلاقا من أن القصيدة العربية قد عبّرت عن الإنسان الجاهلي بأدوات بلاغية ولغوية في غاية الفصاحة والجودة، إلى جانب أنها حافظت على فصاحة اللغة من حيث الجزالة والقوة، وهو ما جعلها محل إعجاب باختلاف المتلقيات والقراءات التي مسّت الفكر العربي وأبانت عن رؤية جديدة في تعاطي النقل الشعري من منظور جديد.

على هذا الأساس وقف بعض أنصار القديم من الشعر الجاهلي موقفا واضحا في وجوب محاكاته وتقليده، لأنه يمثل ذروة تميز هذه الأقاويل الشعرية وابتداعاتها وهو رمز الانتماء إلى الهوية العربية من خلال أنها تحمي اللغة العربية من اللحن من جهة، وتكرس مبدأ القداسة للغة بوصفها لغة القرآن الكريم وعليه جاءت نقود هؤلاء المعجبين والمتعصبين للفن الشعري القديم على هذا النحو.

وقد كان عمرو الشيباني من أكثر المتشددين للقديم، والرافضين للحديث بدعوى أنه ليس فيه ما يمكن أن يكون محل إعجاب وتقدير، ولكن في بعض الأحيان قد يقع في خطأ من حيث عدم التزامه بالمقاييس الفنية في الحكم على جودة الشعراء ورداءته، وهو ما جعل الجاحظ يكشف عيب الشيباني حينما استحسن البيتين

ولا تحسبن الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا ... أقطع من ذاك لذل السؤال

يعلق الجاحظ على موقف أبي عمرو الشيباني بقوله: «وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول الشعر أبدا ولولاه أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أن ابنه لا يقول الشعر أبدا»[1] .

يكشف هذا النص النقدي أن المنطلقات النقدية لدى عمرو الشيباني لم تكن علمية بل إن مضمون البيتين جعل الناقد يستحسنها هذين البيتين لاعتبارات مضمونية بحتة، وما ها يعرض الشيباني إلى انتقادات في الحكم على جمالية البيتين ليس بناء على الأداء الجمالي وإنما من خلال تناوله لموضوع الموت بعيدا عن الأداء الشعري.

وقد تفطن ابن قتيبة إلى أن بعض النقاد لم تكن مستمدة من جماليات النص الشعري، بل كل ما في الأمر أن الحسن مرتبط بالتقدم الزماني وهو ما يراه عيبا واضحا. فيقول «ولم أسلك فيما ذكرته من شر كل شاعر مختارا له سبيل من قلّد، أو استحسن غيره، ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر (منهم) بعين

الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظّه، ووفرت عليه حقه» [2].

إن هذا الحكم النقدي الذي أورده ابن قتيبة يعكس طبيعة الصراع النقدي بين القديم والحديث، وأنه كان مبنيا على التقدم في الفن الشعري أو التأخر، ولم يكن خاضعا للجوانب الفنية لهذه الأقاويل الشعرية ولعل هذا ما يلخص تعصب اللغويين للقديم ورفضهم للحديث على أساس السبق الزمني في القول الشعري.

لم تكن مرتكزات القدماء في التعصب للشعري القديم من جهة، ورفض الحديث من جهة مبنية على أسس موضوعية، بل إنهم قد وقعوا في خطأ منهجي، حينما استبعدوا التحولات الاجتماعية والاقتصادية في تشكيل هذا الجديد، إذا «كانت الطليعة المستقلة لهؤلاء الموالي تتراوح على المستوى الفكري بين الاعتزال الذي يؤكد قيمة العقل فينفي ضمنيا أو صراحة أي تميز اجتماعي ينبع من العراق أو الوراثة أو الثروة، أي تمييز فكري يرتبط بالنقل أو التقليد وبين أفكار الفلاسفة التي انتشرت في ظل المناخ الذي أشاعه المعتزلة»[3].

يشير جابر عصفور إلى دور المثاقفة في صناعة الجديد من خلال تقديم أشكال تعبيرية جديدة تخالف ما هو مألوف في الواقع الفني العربي، ذلك أن هذا الوافد الجديد قد نقل بعض منظومته العقلانية التي لاقت استجابة لدى المثقف العربي الذي وجد في هذه الأفكار ما تتيح له عرض أفكاره المعارضة للقديم، والمنسجمة مع البيئة الاجتماعية العربية التي طرأت عليها تغييرات مفصلية في عالم الفكر والفن.

وهو ما يعني أن الأشكال التعبيرية الجديدة كانت انعكاسا تلقائيا لدور المتغيرات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي أحاطت بنشوء الدولة العباسية.

من هنا «كان الشعراء المحدثون بدورهم وثيقي الصلة بمفكري الاعتزال والفلسفة، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يتقارب واصل بن عطاء (-131هـ) وعمرو بن عبيد (-144هـ) مع صالح بن عبد القدوس وبشار في برد في النشأة الفكرية» [4].

إذا فتحول المجتمع العربي من مجتمع بدوي تحكمه تقاليد شعرية ثابتة ومتوارثة إلى مجتمع غيّرته أنظمة الدولة العباسية وطرائق تفكيرها كان له أثر كبير في تلقي الفن الشعري الجديد، ذلك أنه كان منسجما مع طروحاته والقضايا الاجتماعية التي حرّكت المشهد الشعري ثم انتقل فيما بعد إلى سجالات وتراشقات عبر الكلام، وقد ظهر جليا في الكتابة النقدية المعاصرة فمن الصعب قبول هذا الفن الجديد الذي هو استجابة طبيعية للتحولات الاجتماعية والاقتصادية وقد ظهر جليا في بروز شعر الخمريات بطريقة لافتة ولا سيما عند عصبة المجان الذين تبنوا الحداثة العشرية بكل تمظهراتها المختلفة، ولهذا كان للموالي حضور قوى في الساحة الفنية العربية والتي بدورها عانت من الاستبداد السياسي في عهد الأمويين، واستند هذا الاستبداد إلى تقديس الفن الشعري القديم على حساب الأشكال التعبيرية الجديدة ممثلة في فن المقامات الذي كان نتاجا اجتماعيا لظهور طبقة اجتماعية من الفقراء، الذين تأثروا مع الأنماط المعيشية عند الفرس فوجد بديع الزمان الهمداني والحريري في فن المقامات أداة فنية لوصف التحولات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع العباسي من خلال التطرق إلى موضوعات مسكوت عنها لعلاقاتها بالحكم وسياسة العباسيين في إدارة شؤون الدولة مثل الكدية (التسول) الذي يؤسس لثقافة جديدة في بنية المجتمع، لأنه لم يتعود المجتمع على بروز مثل هذه الظواهر الاجتماعية الغريبة عن مكونات جسد الأمة العربية الإسلامية لأن التاريخ لم يورد في مرحلة من مراحل المجتمع العربي مثل هذه السلوكات ولا سيما حينما جاء الإسلام الذي أقرّ قدسية العمل وضرورة تكفل السلطة بالفقراء واليتامى والأرامل عبر الزكاة أو بيت المال تجنبا للمفاسد وسوء الأخلاق.

قد تناولت المقامات جانبا مهما من هذه التحولات الاجتماعية في العهد العباسي ولكن بطريقة فنية بعيدة عن رقابة السلطة، وهو ما أتاح للقارئ فيما بعد الإطلاع على أن هذه الظواهر نتجت نتيجة الاحتكاك بالوافد الجديد، وخاصة حينما اهتم خلفاء بني العباس بقضايا غبت اهتمامهم بأحوال الرعية، فجاءت المقامات تعبيرا عن هذا التحول، فوجدت في المنجز السردي فضاء لأحاديث اتسمت بالفكاهة في ظاهرها، ولكن باطنها مفعم بإشارات سياسية ودلالات اجتماعية، وقد أشارت ريثنا عوض إلى أن «الفنون جميعا تسير في الاتجاه الذي يشكل في جو حضاري عام يتصف إما بالانسجام بين الإنسان والكون وظواهر الوجود، وإما بالتنافر والتوتر فيتراوح التعبير الفني بين التمثيل والتجريد»[5] .

ولعل هذا يفسّر برأي ريثا عوض أن المسار الفني في أي مجتمع عادة ما يأخذ منحنيين متناقضين الأول يسير على خطى توصيات الدولة، والثاني له رأي آخر مخالف لطبيعة هذا المسار فيحاول الفنان التعبير عن ذلك وفق قوالب فنية جديدة تتماشى مع الراهن وتخالف الأعراف والتقاليد، لهذا تجد في الفنون الجديدة طريقا إلى تجسيد مواقفهم الفكرية والسياسية، وهذا ما دفع كثيرا من العلماء إلى تبني مواقف فكرية بعضها عقلانية تتخذ من العقل سبيلا إلى فضح بعض ممارسات السلطة كما هو الحال عند المعتزلة التي ترى أن العقل مغيّب في التفكير العربي، من أجل أن يكون لديه القابلية في قبول الجهاز، وهذا بهدف جعل العربي خاضعا لأفكارهم دون أن يحتكموا إلى العقل في فهم الأشياء وقد امتد الفكر الاعتزالي إلى الجاحظ في رده على سهل بن هارون في رسالة التي يدافع فيها عن البخل والبخيل ويتهجم عن الكرم والكرماء، وقد انبرى له الجاحظ في كتابه البخلاء الذي ضمنه قصصا شائقة يصور فيه البخلاء بطريقة كاريكاتورية ساخرة من أجل إبراز أن الكرم جبلة عربية والبخل جبلة أعجمية، وذهب أبو حيان التوحيد في كتابه الإمتاع والمؤانسة إلى عرض مسامرات الوزير (أبو عبد الله العارض) مع أبي التوحيدي بطريقة سردية رائعة، وقد جاء في شكل حوارات معرفية وفلسفية ولسانية غلب عليها الطابع العقلاني الذي تبرز طبيعة مجالس الوزراء، وقد أشار كتاب الإمتاع والمؤانسة بثقافة الحجاج، وعرض الأفكار ومناقشتها بأسلوب سردي، ولكن بمنطق عقلاني إمتاز إلى جانب ظهور كتاب كليلة ودمنة لابن مقفع الذي ضمن العلاقات بين الحاكم والمحكوم وطرائق الوصول إلى التفاهم والتواصل من أجل بناء الأمة عوض الدخول في تصادمات لا تخدم المصلحة العامة وهو ما عكسته مقدمة كليلة ودمنة في أن الهدف من كليلة ودمنة إيجاد ميكانزمات التواصل بين الحاكم والمحكوم، وكيفيات توظيف الفيلسوف لقدرته في إحكام العقل، وجعله طريقا إلى حل الخلافات الفكرية التي تنشأ بين الخصوم في النزاعات الشخصية من جهة، وبين النظريات الفلسفية السياسية في معالجة العلاقة بين الراعي والرعية.

إن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي مسّت الدولة العباسية، كان لها الأثر الكبير في بروز أشكال تعبيرية فنية جديدة، حاول الفن نقل هذه الأحاسيس والتطورات الحديثة تماشيا مع هذه التحولات وقد وقف طيب تيزيني عند أثر التحليل المادي للواقع العربي بقوله: «فانطلاقا من تحليل مادي واجتماعي جدلي معمق لواقع وآفاق المجتمع العربي الإسلامي الوسيط نجد أنه في مراحله كلها، ومن ضمنها المرحلة الأولى احتوى اتجاهين أساسيين كانا قد برزا على نحو معقد متداخل مركب من خلال مجموعة من القضايا لاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإيديولوجية الهامة والثانوية، أولهما كان اتجاه التقدم والإبداع، وثانيهما اتجاه التخلف والمحافظة»[6].

لا شك أن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لأي مجتمع من شانها

تقديم إفرازات جديدة لظواهر فنية غير مألوفة لدى المتلقين المحافظين، ولهذا تعامل هؤلاء المحافظون مع الشعر المحدث بالرفض وقد تجلى ذلك في موقفهم من شعر أبي تمام بأنه «أراد البديع فخرج إلى المحال»[7] . معنى ذلك أنه لم يقف عند حدود البديع بل تجاوزه إلى الخروج عن طرائق التعبير العربية.

واحتدم الصراع بين أنصار القديم والحديث على مستوى جماليات النصر الشعري؛ إذ يرى السجستاني في شعر أبي تمام إذ استحسن «بعضه واستقبح بعضا، وجعل الذي يقرؤه يسأله عن معانيه، فلا يعرفها أبو حاتم فقال: أم أشبّه شعر هذا الرجل إلا بثياب مصقلات خلقان، لها روعة وليس لها مفتّش»[8].

ولعل هذا ما لم يستوعبه أنصار القديم في حملتهم الشرسة ضد الحديث بأن هذا الحديث كان استجابة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في بنية المجتمع العربي إبان الحكم العباسي، وأن ظهور حركات الشعوبية، وثورة العبيد كانت انعكاسا لحالة التهميش الذي عانى منه الأعاجم والموالي في ظل استبداد سياسي واستعباد هذه الشعوب التي لم تجد موقعا اجتماعيا في بيئة لا تقيم وزنا للأعراف ولا تحتكم لموازين العرف والدين ولا دخل للعرق في إنزال الناس منازل خاصة امتثالا لتعاليم الإسلام أن المفاضلة في الإسلام لا تقوم إلا على أساس التقوى، وما عداها فهو بهتان وخروج عن الشرع واتباع للهوى وتكريس لروج جاهلية مقيتة.

على هذا الأساس ظهرت الشعوبية بوصفها رد فعل لعدم المساواة بين الناس على اختلاف ألسنتهم، وتعدد مشاربهم وتنوع ثقافاتهم، وعليه بات من الضروري أن يقف الموالي والأعاجم ضد التعصب للعربي بغير حق، وقد قاد هؤلاء المهمشين والمستبعدين إلى الخروج عن سلطة الحاكم العربي، وقد حمل لواءه العبيد الذين لم يجدوا حماية من الحاكم العربي، وعليه فهناك من يفسّر الشعوبية على أساس ثورة ضد البرجوازية العربية التي تفاقمت في ظل الحكم الأموي وقد وقف حسين مروة كثيرا عند دور الأمويين في تعزيز التفرقة بين الأجناس وتجسّد على أرض الواقع من ذلك ما فعله معاوية مع أسرته إذ «أصبح في حيازتهم أراضي واسعة كانت قبل الفتح العربي- الإسلامي ملكا لإمبراطور بيزنطة وارستقراطيا، وكان من المفترض- حسب نظام الأراضي في الإسلام-أن تكون ملكا عامة للدولة الإسلامية، ولكنها تحولت تحت سلطة معاوية وأقربائه وبطانته إلى ملكية خاصة...في حين كان العرب الآخرون مشغولين بأعمال الفتح في مناطق بعيدة أو مرابطين في المعسكرات لحماية الدولة من الانتفاضات أو لمحاربة الأحزاب المناوئة للأمويين في العراق وغيرها، من هنا تكونت لدى العرب وقتئذ تقاليد فرضتها عليهم ظروف الفتح وظروف الصراع السياسي الداخلي هذه، ومن هذه التقاليد مثلا افتقارهم الأعمال الزراعية والحرفية التي أوجبت تلك الظروف كلها أن يختص بها العبيد والسكان الأصليون» [9].ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب بل ذهب بهم الأمر إلى ممارسة طقوس مخالفة لتعاليم الإسلام ونشأت «نزعة التعاليم على غير العرب التي أخذت بها الدولة الأموية وظهرت بتسميتها العناصر غير العربية "الموالي"» [10].

إن هذا النظام المتهالك الذي مارسه الأمويين على بقية العناصر غير العربية أسهم في إثارة أشكال الرفض لمثل هذه الممارسات التعسفية والاستبدادية في الحكم الأموي.

إذا تشير الدراسات المعاصرة التي تتخذ من التحليل الاجتماعي للظواهر الأدبية على أنها نتاج طبيعي لكل هذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت بالفكر العربي سواء في ظل الدولة الأموية أو العباسية لأن الفن انعكاس طبيعي لهذه الظواهر الاجتماعية والاقتصادية التي نشأت في البيئة العربية التي استأثرت بالحكم لفئة عربية دون أخرى من الأجناس المختلفة في طبيعتها وأصولها، وهو ما يعني أن المقاربات الاجتماعية للنصوص الأدبية في القديم تحيلنا على أنها متشكلة من هذه الأنماط الفنية

الجديدة التي كانت استجابة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في البيئة العربية .

انطلاقا من هذه التصورات المنهجية لأشكال الفنون في الفكر العربي القديم قد كان لها تمثلات للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي نشأت في البيئة العربية في حكم الأمويين والعباسيين وما أثار حولها من خلافات حادة في وجهات نظر خاصة حينما يتعلق الأمر بأن هذه الممارسات لا تتمتع بالشرعية والسند القانوني الذي يستمد شرعيته من الإسلام، وما دعا إليه من وجوب الاحتكام إلى الدين الإسلامي في المفاضلة بين الشعوب والأفراد، وأن يكون مستمدا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهو ما كان غائبا في بنود الحكم العربي في فترتي الأمويين والعباسيين، وهو ما عجل بظهور حركات أدبية وثورات سياسية قد تكون دوافعها في أحيان كثيرة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهو ما انعكس على مسار الفنون في تلك الفترة وأنتج أشكالا من الفنون مثل المجون والزندقة وظهور النزعة العقلية في الأدب ولا سيما في الفكر الاعتزالي وعلى هذا الأساس فليس من الصواب الحكم على هذه الفنون بأنها أساليب تعبيرية فنية مرفوضة نظرا لعدم محاكاة القديم شكلا ومضمونا لأن المتأخر أولى بتقليد السابق (المتقدم) لأنه يحمل كل عناصر الجودة، وما جاء من المتأخرين قد سبق إليه من قبل المتقدم، وعليه فليس للمتأخر من بد سوى إتباع المتقدم لكل ذلك على حساب الفن والأدب.

وفي الأخير تخلص هذه المقاربة إلى أن للظواهر الاجتماعية والأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية انعكاسا على مستوى الأشكال التعبيرية والتقاليد الشعرية التي ظلت ردحا من الزمن تتمتع بالقداسة والنمذجة الفنية بوجوب المتأخر من تقليد السابق، ولكن مع انفتاح المجتمع العربي على الواحد الجديد وتكريس مبدأ الحريات بوصفها منطلقات أساسية في أي تقدم أو تطور، هذا انعكس إيجابا على مستوى النهضة العلمية والفكرية والأدبية وأتاح للشعوب غير العربية من إبراز تقاليدها الاجتماعية ومواقفها الفكرية وخصوصياتها السلوكية الأمر الذي ظهر جليا لدى بعض الأعاجم.

إن هذه التغييرات على الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في ظل العباسية قد كان له أثر كبير على مستوى التشكيلات الجمالية للفن، وظهور أنماط تعبيرية جديدة لم يكن للعرب معرفة سابقة بها مثل بروز النزعة العقلية في الشعر العربي، والتصوف إلى جانب فنون أدبية جديدة مثل المقامات والكتابة السردية التي تجلت في كتاب النجلاء للجاحظ والامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، وألف ليلة وليلة وغيرها من أنواع السرد العربية القديمة التي جسّدت أثر التحولات الاجتماعية والاقتصادية في البنية الذهنية للإنسان العربي من خلال تناول المبدعين قيمات جديدة اتسمت بالنظرة العقلية والتفكير العلمي في المحاورات الفلسفية والمعرفية في الفكر الفلسفي والذي كان له انعكاس على مستوى النقد العربي القديم ولا سيما في قضية اللفظ والمعنى ، والنزعة العقلانية في شعر بعض الشعراء.

بناء على هذا كان من الضروري أن يحدث تغيير في بناء القصيدة العربية، وأن يشمل هيكلها وبناءها الفنين ولم يقف عند هذا الحد فحسب، بل امتد إلى ميلاد أغراض شعرية جديدة تتماشى مع الراهن العربي في العصر العباسي.

المراجع:

(1) _ الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البياجي الحلبي، ط1، 1983، ص 131.
(2) _ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: محمود شاكر طبعة عيسى الباجي الحلبي القاهرة، ج1، ص 6.
(3) _ جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، الطبعة الأولى دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 1991، ص 119.
(4) _ المرجع نفسه، ص 126.
(5) _ ريثا عوض، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، الطبعة الأولى، دار الآداب، بيروت، 1992، ص 142.
(6) _ طيب تيزين، من التراث إلى الثورة، الطبعة الثانية، دار ابن خلدون، بيروت، 1978، ص 66.
(7) _...الموشح تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 377.
(8) _ المصدر نفسه، ص 244.
(9) _ حسن مروة، النزاعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، الطبعة الثانية، الفارابي، بيروت، لبنان، 2008، المجلد الثاني، ص 14.
(10) _ المرجع نفسه، ص 14.